ASJP Algerian Scientific Journal Platform

المجلة التاريخية الجزائرية

ISSN: 2572-0023 / EISSN: 2716-9065

https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/664

المجلد:07، العدد:01 (2023)، ص116-133

عوامل وأسباب خراب العمران في المغرب الأوسط

Factors and causes of the destruction of urbanization in the Middle Maghreb

حكيم قدور طاهري

مخبر البناء الحضاري للمغرب الأوسط

جامعة الجزائر 02 (الجزائر)

Hakim.tahri@univ-alger2.dz

مسعود بلغازي*

مخبر المخطوطات

جامعة الجزائر 02 (الجزائر)

messaoud.belghazi@univ-alger2.dz

معلومات المقال

تاريخ الإرسال:
2023/01/28
تاريخ القبول:
2023/05/07

الكلمات المفتاحية:
- ✓ العمران
- ✓ المغرب الأوسط
- ✓ المدن الإسلامية
- ✓ خراب

الملخص:

يتمحور هذا البحث حول عوامل وأسباب خراب العمران الإسلامي، فالعديد من الأسباب أدت لتخريب الكثير من المدن الإسلامية خاصة في المغرب الأوسط، وقد فصلت المصادر التاريخية والجغرافية في هذا الباب، وقد ركزنا في هذه الورقة البحثية على إقليم المغرب الأوسط بموجب أنه أكثره عرضة لتخريب وفق منظور سياسي توسعي لتلك الدويلات المستقلة، وحصر البحث في أربعة عناصر أساسية بحيث تتداخل فيها عناصر مفصلة عن ذلك، فالعامل الطبيعي والبشري والاقتصادي وتأثير الأوبئة هي عناصر مخرب للعمران سواء بطريقة مباشرة وغير مباشرة، على كل حال فالموضوع واسع ولا تكيفه هذه الصفحات لهذا اكتفينا ببعض المعلومات عن هذه الأسباب والمهلكة للعمران.

Article info

Received:
28/01/2023
Accepted:
07/05/2023

Key words:
- ✓ urbanization
- ✓ Middle Maghreb
- ✓ Islamic cities
- ✓ destruction

Abstract:

This research revolves around the factors and causes of the destruction of Islamic urbanism. Many of the reasons led to the destruction of many Islamic cities, especially in the middle Maghreb. Historical and geographical sources have been detailed in this section. Expansive political for those independent states, and limiting the search to four basic elements so that detailed elements overlap in it. The natural, human, and economic factor and the impact of epidemics are elements that destroy urbanization, both directly and indirectly. These are the causes and the summary: This research revolves around the factors and causes of the destruction of Islamic urbanism. Many of the reasons led to the destruction of many Islamic cities, especially in the central Maghreb. Historical and geographical sources have been detailed in this section. Expansive political for those independent states, and limiting the search to four basic elements so that detailed elements overlap in it. The natural, human, and economic factor and the impact of epidemics are elements that destroy urbanization, both directly and indirectly. These are the causes and the destructive for Imran. destructive for Imran. the contents of the article). Enter your abstract here (an abstract is a brief, comprehensive summary of the contents of the article) .

*المؤلف المرسل

مقدمة

إذا كان ابن الربيع والماوردي وابن خلدون وغيرهم من العلماء والمفكرين اشترطوا مجموعة من الشروط لإنشاء وتطور المدن ومنها العمران، فإنهم كذلك أشاروا لعدة نقاط التي تتسبب في خراب العمران، فالأسباب متعددة والنتيجة واحدة وهي الخراب، فكثير من المدن عبر التاريخ هدمت وخربت ولم يبق لها إلا بعض الشواهد الأثرية التي تأرخ لتلك العظمة الحضارية، فالدول أو المدن تقاس بعمرانها وعمارتها، فكلما توسعت إلا وعظمت في العديد من الجوانب، لكن إن حدث خلل في اختيار الموقع أو تنظيم المدينة، أو حتى حدثت ظاهرة طبيعية من مثل الزلازل أو الفيضانات أو غيرها، أو تم ممارسة الظلم من قبل الحاكم أو الرعية، فإن النتيجة عائدة على استقرار المدينة ومنها الدمار والفوضى ثم الخراب.

وعليه خصصنا هذا المقال لنسلط الضوء على أسباب وعوامل خراب العمران الإسلامي، ومن سنشير للعديد النقاط المتداخلة فيما بينها والمؤدية للخراب، والإشكالية المطروحة عن هذا البحث؛ **فيم تتمثل عوامل وأسباب خراب العمران؟ وإلي أي مدى تأثر على الإنسان والعمارة؟**

1. عوامل خراب العمران الإسلامي

تعددت أسباب خراب العمران في العديد من العناصر بين ما هو طبيعي وبشري واقتصادي وغيره، وقد فصلنا هذه العناصر في الفقرات القادمة مدعمة بالعديد من الأمثلة، وهي على النحو التالي:

1.1. العامل الطبيعي

إن الموقع الطبيعي الذي تم اختياره لبناء المدينة يخضع لعدة متطلبات بيئية، فالمناخ الملائم والسطح الأرض، ونوعية المياه وجودة التربة، والتحصين الطبيعي ومواد البناء وغيرها من المتطلبات (محمد اللبان، 1999: 96)، فكل هذه المبادئ تتحكم في اختيار الموقع وبناء المدينة ولها تأثير مباشر وغير مباشر في تطورها، فتوفر مواد البناء قرب الموقع الذي تم اختياره يوفر على أهل المدينة الوقت والجهد ويسرع في البناء والتعمير، وشكل سطح الموقع يتحكم في شكل المدينة الذي يراد تشييدها، أما المناخ (الحرارة، البرودة، الرياح، التساقط) فهو يحدد لنا شكل واتجاه المنازل بصفة خاصة والمدينة بصفة عامة (ناصري، 2020: 273)، هذه الأبجديات المتعارف عليها عند العام والخاص تساهم بنسبة كبيرة في استقرار الإنسان بهذه الموقع، وممارسة نشاطه من تعمير وفلاحة وتجارة وزراعة. أما عن مفاسد الجانب الطبيعي وتأثيره على الإنسان ونشاطه العمراني فهي كثيرة، وتختلف من منطقة إلى أخرى وهي ليست محددة بوقت ولا فصل معين، فالأرض والحرارة والهـــواء والمـــاء والزلازل والفيضانات والأوبئة والمجاعات وغيرها من المظاهر الطبيعية لها تأثير على الجانب العمراني للمدن، وتمحور هذا التأثير على النحو التالي:

1.1.1. سطح الأرض

يعد سطح الأرض من الملامح الطبوغرافية التي أثرت في اختيار ونشأة ونمو وتوزيع العمراني بالمدينة (اللبان، 1999: 17)، فالموقع الذي قد يتم اختياره ليس بضروري يكون مستوي على نقطة واحدة، فأغلب

المدن التي شيدت كانت على مواقع صعبة وذات أرضية يصعب تخطيط المنازل على طريق واحد، وتنس وقلعة بن حماد خير دليل علة ذلك، ومنه تم إنشاء منازل متداخلة ومتدرجة في علوها، وينجم عنه كذلك ضيق في الشوارع والطرقات (السراج، 2015: 33-34)، فقد تكون هذه نقطة إيجابية من ناحية الحماية للمدينة، لكن تحرك الجيولوجي لسطح الأرض سواء كانت حجرية أو تربة يتسبب في حركة وتأثير على العمران، وهذا ما نراه في انشقاق الأسوار وتصدع في تكسية الجدران والأرضية، صراحة قد يكون هذا العامل بعيد قليلا في خراب العمران، لكن تركيز المصادر الجغرافية على حسن اختيار الموقع الطوبوغرافي دليل على أهميته ودوره البارز في العمران وتطور المدن.

2.1.1. تغير المناخ

أما عن تغير المناخ على مستوى الهواء فهو أحد العوامل السلبية المؤثرة على حياة الإنسان والحيوان والنبات، فالحرارة والبرودة والمطر والجفاف والفيضانات عناصر خارج نـــطاق الإنسان ولا يتحكم فيها أبدا وتؤثر عليه في صحته ومسكنه وغذائه وملبسه وحياته اليومية (شمبري، 2014: 7) فالهواء هو أوكسجين يتغذى به الإنسان ويسري في جسده، فإذا وقع فيه سوء أهلكه وأرغمه على الهجرة من تلك المنطقة، كما قد تصيبه الأمراض ويعطل نشاطه اليومي من تجارة وبناء وفلاحة (محمود حمود، 2018: 171)، وجراء ذلك يقع كساد (ابن منظور: 380) في تلك المدينة وهلعاً بين الناس حول تلك الأمراض، فحتى بخار المـــاء الصاعدة من الأوديـــة أو الآبار المتعفنة بسبب جثث الحيوانات وما شابه ذلك تؤثر في الهواء ومنها إلى جسد الإنسان والحيوان والنبات (قاسم محمد، 2020: 70) هذا نموذج عن خراب العمران بطريقة غير مباشرة، وقد يتسبب في بعض الأحيان إلى خراب واسع يهدد حياة الإنسان في ذلك الإقليم، باعتبار أن الإنسان هو أصل العمران وبقائه ويساهم في تطوره.

3.1.1. تأثير الماء

وقياسا على قول الله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (سورة الأنبياء الآية 30)، فهذه نعمة من الله تعالى لخلقه من الإنسان والنبات والحيوان، كما هي عذاب حسب ما ذكره القرآن الكريم قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴾ (سورة الحاقة الآية 11)، أي أن الماء تجاوز حده المعروف، وهذا زمن الطوفان فَحُمِلُوا في السفينة التي تجري في الماء، وهنا يقصد قوم نوح (الطبري، 1994: 360)، فالماء الذي أنزل على قوم نوح كان ماء عذاب ومنهمر أي كثير، وقد تسبب في طوفان على قومه فأغرق الفاسدين وعمرانهم، ولا مناص للنجاة من تلك الظواهر الطبيعية التي في ظاهرها أمر طبيعي لكن باطنها عذاب من الله على تلك الأقوام.

وإن كانت المياه تختلف مشاربها من عيون وأبار ووديان، لهذا فمعظم المدن التي شيدت كانت بجوار تلك المشارب العذبة، لكن قد تصبح فاسدة إذا مسها العفن جراء التلوث الجوي أو الجيفة من حيوان أو جثة

إنسان، فالمدينة التي تكثر فيها الأمطار قد تسبب لها فيضانات فيخرب عمرانها ويهلك أهلها ويهجر الباقي (القزويني: 169)، ففي سنة 722هـ/1322م شهد المغرب الإسلامي أمطار غزيرة تسببت في خراب العمران من أسوار ومنازل وحاصرت العديد من المدن خاصة التي شيدت بجوار الوديان والأنهار (البياض، 2008: 55)، ويذكر أن أبي عنان المريني 758هـ/1357م اعترضته فيضانات جارفة لما كان متوجها لمدينة قسنطينة من أجل السيطرة عليها، لكن لم يستطع الوصول إليها بسبب عدم استطاعته المرور جراء مجرى السيول الجارفة (النميري، 1990: 258)، كما أستعمل الماء سلاح في الحروب من خلال سد منافذه الآتية من الآبار والعيون وهذا من أجل إسقاط المدن وهلاك أهلها (ناصري، 2020: 144)، وهذا الأمر ينطبق على بني زيان الذين أخفوا منابع الشرب التي كانت مدينة تلمسان تستعملها للشرب أيام حربهم مع بني مرين، إلا أن وشاية أحد العملاء لأبي الحسن المريني تسببت في قـطع المـــاء عليهم وهدد حياتهم واستقرارهم (كاربخال، 1989: 299)، وإن كانت الغاية هو الحصار والطرد والسيطرة على المدينة غير أن التأثير رجعي على العمران وعلى نفسية الإنسان بعدم التشييد والاستقرار.

4.1.1. الجفاف

يعد الجفاف أكثر الكوارث الطبيعية المهدد للإنسان سواء في مأكله ومسكنه ولباسه أو استقراره بصفة عامة، وقد يطول الجفاف بتلك المنطقة لمدة غير معروفة فهذا أمر مقدر من الله تعالى، فكثير من الأقوام السابقة قد تعرضت لهذه الظاهرة الطبيعية، وهي ليست متوقفة على مدينة معينة فقط أي قد تصيب الأرض بشكل عام، ويذكر أن المغرب الأوسط لحق به جفاف عظيم، وتسبب في خسائر كبيرة للمزارعين وعليه غلاء في الأسعار ونقصها، فَخَلَفَ لنا مجاعات سنة 610هـ/1214م وكذلك في سنة 617هـ/1220م، فأحدثت كساد في العمران وهجرة لعدة قبائل من مدينة إلى آخر(ابي زرع، 1972: 288)، وقيل أيضا أن مدينة بجاية أصابها جفاف عظيم، وراح ضحيتها الكثـير من الناس وهـجر الباقي للقـيروان ومدن أخرى، ومما يروى أن العالم الحرالي (ت637هـ) (التنبكتي، 1989: 318)، أنه كان يتصدق على الفقراء بالماء (التنبكتي، 1989: 320)، فهم كانوا لا يملكون ينابيع ماء وليس لهم المقدرة على صنع مخازن يجمعون فيها الماء، فالجفاف تأثيره قوي جدا نظرا لارتباط عدة أشياء بالماء، فهو يلحق ضرر بالإنسان والعمران والاقتصاد.

5.1.1. الزلازل

تعد الزلازل من الظواهر الطبيعية الأكثر خراباً للمدن وتهديدا للإنسان، فهو غير قادر على مواجهة هذه الظاهرة ولا يعلم وقتها أبدا، فالكثير من المصادر الجغرافية والتاريخية وصفت لنا الخراب الذي حل بالعديد من المدن، ويذكر لنا عبد الواحد المراكشي الزلزال الذي ضرب المغرب الإسلامي فقال: "**وقعت زلزلة عظيمة في بلاد المغرب اهتزت الأرض بها بمن عليها**" (ابن عذاري، 1985: 402)، ومن خلال قوله يستخلص قوة وعنف الزلازل ومدى الخراب الذي خلفه سواء على الإنسان وتخريباً للعمران، فحتى المغرب الأوسط تعرض لزلزال حسب يحي بن خلدون وهذا يوم 20 ربيع الثاني 766هـ/1368م بمدينة الجزائر (يحيى ابن خلدون،

2001: 149)، ويمكن الجزم أن أي مدينة إذا أصابها زلزال عنيف فمن صعب أن يبقى عمرانها على حـــاله أو حتى إعادة ترميمه وتجديده فيما بعد، مما يؤدي إلى الهجرة والبحث عن مدينة أخرى آمنة من كل المخاطر.

إن اقتصارنا على أهم الظواهر الطبيعية التي تتسبب في خراب العمران بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، ليس غايته الاختيار أو الشائع منها بل جاء وفق تأثير التي تخلفه، لهذا فالعمران مرتبط ارتباطاً وثيقاً بما يحدث في هذا الوسط البيئي، لأن سلامة هذا الأخير من تلك الظواهر هو الحياة والصحة والتطور والتمدن بشكل مستمر (قاسم محمد، 2020، 65)، وتجدر بنا الإشارة أن أي حادثة قد تطرأ على الوسط الطبيعي تؤثر على حياة الإنسان ونشاطه اليومي من تشييد للعمران وتجارة وزراعة.

2.1.العامل البشري

يعتبر العامل البشري أحد العوامل المتحكمة في تطور العمران كما قد يكون مخربا له، وتتعدد أساليبه وأسبابه في التطور والخراب، فأما التطور فيقف على من تولي هذه المدينة بصفة حاكم لها، وهو من يأمر بتعميرها وتحصينها ويقيم العدل بين الرعية، وفي هذا الصدد قال أبو حمو موسى الثاني الزياني: "**إعلم يا بني أن الملك بناء والعدل أساسه، وإذا قوى الأساس دام البناء، وإن ضعف الأساس إنهار البناء، فلا سلطان إلا بجيش، ولا جيش إلا بمال، ولا مال إلا من جباية، ولا جبايا إلا بعمارة، ولا عمارة إلا بالعدل، فالعدل أساس**" (أبو حمو موسى الثاني، 2012: 196)، صراحة أينما قام العدل توسع العمران ودامت الدولة، كما نقل عن المسعودي قوله: "**الملك بالجند والجند بالمال، والمال بالخراج، والخراج** (ابن منظور، 251) **بالعـــمارة، والعمارة بالعدل، والعدل بإصلاح العمال، وإصلاح العمال باستقامة الوزراء، ورأس الكل بافتقاد الملك حال رعياه بنفسه واقتداره على تأديبها حتى يملكها ولا تملكه**" (العصيمي، 2013: 7)، وهنا نركز على المـــلك والمـــال والعدل والعمارة فهذه مرتكزات لتطور، وأساسها خاصية قيمة أخلاقية وهي العدل، فهذي الخاصية تشمل كل شيء وأساس الأمن والتطور.

لا يـــمكن أن نتصور اختـــيار وبـــناء وتطور مدينة بلا علم، فالمبادئ والشروط التي أقرها العلماء مبنية على دراسات دقيقة وتجارب سابقة، لهذا فتقديم العلماء بمختلف تخصصاتهم في مناصب للدولة هو عامل لتطور المدينة وعمرانها، لهذا فهو شرط لبناء وتنظيم المدينة، لهذا يقول ابن القاضي: "**لا تستوطن إلا بلدا فيه سلطان حاضر، وطبيب ماهر... وقاض عادل، وعالم عامل**" (المكناسي، 1973: 42)، إن وجود طبيب والقاضي والعالم في المدينة من ضروريات الحتمية لا يمكن الإستغناء عنها، فلا يمكن أن نتصور بلدة دونهم، ويعدوا دافع لتعمير المدن منذ أن يجتمع الناس على إختيار موقع وتنظيم المدينة، وكذلك على الحاكم الاهتمام بطبقة العمال من الحرفيين والصناع وتوفير الإمكانيات لازمة لهم (الماوردي، 1981: 163-164)، وعلى هذا الأســـاس تعظم المدينة ويتوسع عمرانـــها، ويزيد ترف وثروة أهلها ويطلب بعد ذلك التنافس وبناء

الكماليات والتأنق في الصناعات (ابن خلدون، 2001، 502)، هذه بعض عوامل التي يساهم فيها الإنسان من أجل تطوير المدينة وعمرانها.

وحري بنا التطرق إلى عامل البشري وتخريبه للعمران أو المدن بصفة عامة، وتتعدد مظاهر التخريب في عدة نقاط، وسنذكر البعض منها حسب حجم الضرر الذي تخلفه، ومنه سنعطي عدة أمثلة على بلاد المغرب الإسلامي والمغرب الأوسط وكيف تم تخريب العديد من المدن التي كانت تشهد حضارة عمرانية متطورة وسريعة، لكن لم يبق من تلك المدن إلا بعض المعالم الأثرية التي مازالت تقاوم الظروف الطبيعية والبشرية، ومن بين عوامل التخريب العمران نجد:

1.2.1. الحروب

ومن مُهْلِكَاتْ المدينة وعمرانها الصراعات السياسية والعسكرية داخلياً وخارجياً، وهنا نشير إلى ما يسمى الحروب التي نجمت بين دولة ودولة أخرى، أو بين قبيلة وأخرى، أو شخص وآخر، فالحرب هي الويل والهلاك سواء القتل أو الجرح، وهي تعدي على الأخر وسلب ما يملكه (الجوهري، 2009: 235)، ونتائج الحروب كثيرة وتأثيرها مكاني وزماني، فلا عمران باقي ولا تجارة رائجة ولا استقرار بشري بتلك المدن التي تتعرض لحروب قوية، ولنا عدة أمثلة عن هذه الحروب سواء ما تعلق بالحضارات القديمة أو الحضارة الإسلامية، وخاصة ما تعلق بالمغرب الإسلامي والذي شهد حروب كثيرة أثرت كثيرا في العمران.

لقد عرف المغرب الإسلامي والمغرب الأوسط بصفة خاصة عدة حروب منذ الفتح الإسلامي إلى ظهور الدويلات المستقلة، وهذا أمر عادي بالنسبة للبربر الذي رفضوا في البداية الوجود الإسلامي، وهذا قول خلد عن الكاهنة في أن العرب يريدون البلاد والذهب والفضة، ونحن إنما نريد المزارع والمراعي، ولا أرى إلا خراب إفريقية حتى يَيْأَسُوُا منها، وهكذا خربت المدن وهدمت الحصون وقطعت الأشجار ونهبت الأموال، ولم يبق من إفريقية إلا الخراب والحجارة هنا وهناك، وقيل أن إفريقية كانت ظلا واحدا وقرى متصلة (النويري: 19)، وهذا دليل على عظمة العمران أيام الفتوحات الإسلامية، لكن الكاهنة خربت تلك المنشئات العمرانية كي لا يستغلها الفاتحون المسلمون خاصة أيام حربها مع حسان بن النعمان، صراحة قد لا يقاس هذا التخريب على معظم بلاد المغرب الإسلامي، أي ربما يكون مقتصر على بلاد الأوراس الذي كانت تتحكم فيه الكاهنة وفقط.

إن الحروب والفتن التي قامت في المغرب الأوسط والمغرب الإسلامي بصفة عامة لم تكن إلا خرابا ودمار للعمران، فقد أشارت بعض المصادر التاريخية في ثورة أبي يزيد بن مخلد الأنصاري (ابن حزم:495) (ابن خلدون: 18) ضد الوجود الفاطمي أنه تم تخريب ثلاثون قرية بإفريقية (الدرجيني: 101)، مع العلم أن تلك الحروب استعملت فيها جميع الأسلحة مما أدي لتخريب المدن ودمارها وبهذا هجرة سكانها نحو الجبال أو مدن أخرى (ابن الأثير، 1987: 308)، ولم تسلم مدينة تيهرت على مر تاريخ من الحروب بداية مع أبي عبيد الله الشيعي أيام زحف على المغرب الأوسط سنة 365هـ، فخرب عمرانها وقتل الكثير منها وطرد الآخرين، ولم يبق من المدينة سوى الأسس وهدمت مكتبتها المشهورة باسم المعصومة وأخذوا كتبها المختلفة (الوزان، 1983:

41) (الباروني، 2005: 346)، لكن تم تعميرها من جديدة في عهدهم واستغلها بني عبيد كولاية تابعة لهم، وفي عهد بني زيري بقيادة بلكين خربها وطرد أهلها وأحـــــرق ونهب ثرواتها (النويري: 93) (ابن خلدون: 106)، هذه بعض ما أوردته المصادر حول تخريب مدينة تيهرت التي كانت إحدى أهم وأرقى المدن من شتى نواحي خاصة العمران وهذا حسب مع ذكرته المصادر التاريخية والجغرافية.

يصف لنا ابن خلدون يصف ما فعله بني هلال في المغرب الأوسط فيقول: "... **واستباحت العرب وزناتة خزائن الناصر ومضاربه... ثم لحق بالقلعة فنازلوها وخربوا جنباتها وأحبطوا عروشها، وعاجوا على ما هنالك من الأمصار، ثـــم طبـــنة والمسيلة فخربوها وأزعجوا ساكنيها، وعطفوا على المنازل والقرى والضيع والمدن فتركوها قاعا صفصفا أقفر من بلاد الجن وأوحش من جوف العير، وغوروا المياه واحتطبوا الشجر وأظهروا في الأرض الفساد، وهدروا ملوك أفريقية والمغرب من صنهاجة وولاة أعمالها في الأمصار، وملكوا عليهم الضواحي يتحيفون جوانبهم ويقعدون لهم بالمرصاد، ويأخذون لهم الإتاوة على التصرف في أوطانهم**" (عويس، 1990: 131) (حسن مؤنس: 622) (ابن خلدون: 27)، إن هذا التخريب الذي مس المغرب الأوسط لم يسلم منه شجر ولا حيوان ولا سكن فهم كانوا أشد الناس قتلا وتخريبا (الحميدي الحسني،2002: 263)، فمن خلال القراءة التاريخية لكتب المصادر نجد أن بني هلال والعبيدين كانوا أكثر الأقوام تخريبا للعمران بالمغرب الأوسط، ولنا أمثلة في تيهرت وتنس وأشير وقلعة بن حماد.

وفي النصف الأول من القرن السادس برزت نتائج الغزو الهلالي واضحة إذ تخرب عمران المناطق الداخلية واضمحلت أسواقها وسيطر العرب الهلالية على طرقها، ولم يعد الطريق الداخلي الذي يربط بينها يسلك إلا نادرا، فاختفت قلعة بني حماد كمركز تجاري وأصبحت القيروان ممرا عابرا (أحمد موسى،1983: 308)، فحتى وإن بقيت تلك المدن سواء في المغرب الأوسط أو المغرب الإسلامي إلا أنها تأثرت بتلك الحروب والفتن على مستوى الحياة الاقتصادية والاجتماعية والزراعية (ابن الأثير، 1987: 37) (النويري: 122-123) (بن عميرة، 2015: 34)، كما أن بعض المدن شيدت بأنقاض ومخلفات المدن التي خربت من قبل وهنا نضرب مثال عن مدينة بجاية (الادريسي، 2002: 261) فهذا الأمر أصبح تقليد في تشييد المدن بحيث أصبح المعماري يأخذ كل ما يسهل عليه من مواد للبناء ويعجبه من زخارف عمائرية من تلك المدن المندثرة.

إن سياسة التوسعات التي تبعها المرابطين لم تختلف عن سابقيهم من خلال سيطرة وتخـــريـب وقتل من يعارضهم منهجا وسياسة ودينا، بعد أن دخل يوسف بن تاشفين المغرب الأوسط وسيطرته على تلمسان ووهران وتنس وجزائر بني مزغنة وصولا لمدينة أشير التي خربها وطرد أهلها وهذا سنة 495هـ/1101م (الصلابي، 1998: 192) (شاكي، 2016: 113-114)، وهذا نموذج واضح في تخريب العمران عن طريق توسعات الحدودية لتلك الدويلات.

لا تختلف الدولة الموحدية عن باقي الدويلات السابقة في سياسة التوسعات في سياسة القتل والتخريب وغيرها، فمن بين المدن التي تعرضت لتخريب أيام زحفهم نجد مدينة وهران وهذا سنة 539هـ/1144م، حيث أحرقوا أبوابها وهدموا أسوارها وقتلوا من فيها وطردوا الباقين (ابن عذاري: 21) (ابي زرع: 166)، فحتى قلعة بن حماد تعرضت لتخريب من قبلهم فأضرموا النار في مساكنها وخربوا أسوارها، وقتلوا من فيها حتى وصل عدد ضحايا ثمانية عشر ألف نسمة (بن قربة، 1991: 40)، ومما تذكره المراجع التاريخية أن من أشد الثورات تخريبا في المغرب الإسلامي والمغرب الأوسط بصفة خاصة ثورة بن غانية ضد الموحديين، والتي فاقت خمسة عقود متتالية فدمرت العمارة وراح ضحيتها الكثير وأضعفت وساهمت في سقوط الدولة الموحدية (صديقي، 2014: 109)، ومن بين المدن التي خربت في المغرب الأوسط نجد مدينة الخضراء (عين الدفلى) ومتيجة وسوق حمزة ومرسى الدجاج (عبد القادر، 2006: 160)، وهكذا كان حال الكثير من المدن التي شيدت على مسار الطرق التجارية، والتي كانت أكثر عرضت لتخريب بفعل الطمع في السيطرة أسواقها وقوافلها التجارية.

ومن بين أشد الصراعات تأثيرا على العمران والمجتمع في المغرب الأوسط هو الصراع الذي قام بين بني مرين و بني زيان، بحيث شهد حصار طويل لمدة تفوق ثمان سنوات وثلاث أشهر وخمسة أيام، فقد تخللته موجهات وتخريب للعمران من قبل بني مرين على مدينة تلمسان (بن دادو، 2010: 29)، ويذكر الناصري أن السلطان أبي سعيد المريني دخل تلمسان وأحوازها وخرب عمرانها فقال: "...**فدخل بلاد بني عبد الواد على هذه التبعية فاكتسح نواحيها...ثم نهض إلى تلمسان فنزل بالملعب من ساحتها وتحصن أبو حمو بالأسوار وغلب السلطان أبو سعيد على معاقلها وسائر ضواحيها فحطمها حطما ونسفها نسفا**" (الناصري، 1951: 105)، من خلال هذه المصطلحات التي وردت في هذا القول يستنبط حجم التخريب الواسع الذي مس تلمسان وضواحيها، كما يبين أن بلاد تلمسان كانت حاضرة عمرانية بشكل كبير وهذا لا شك فيه نظرا لموقع المدينة بالنسبة لبلاد المغرب الإسلامي.

يذكر ابن خلدون أن السلطان المريني يوسف بن يعقوب في حملته سنة خمس وتسعين وستمائة على المغرب الأوسط خرب العمران وقتل الناس فقال: "...**وسار حتى نزل تلمسان فانحجز (فحجز) عثمان وقومه بها، ولاذوا منه بجدرانها، فسار في نواحيها ينسف العمران ويحطم الزرع**" (ابن خلدون، 2001: 284)، صراحة من البديهي أن يكون المغرب الأوسط محل صراع وحروب، في ظل وجود دولتين المرينية والحفصية شرقا وغربا، واللذان كانا يتوسعون على إقليم الدولة الزيانية ومنه تظهر نظرية المد والجزر في الحدود تحت عامل القوى والضعف، لكن بحكم ما أوردته المصادر أن معظم الحروب بني زيان كانت مع بني مرين.

لا يمكن أن نغفل ما قد ينجم عن الحروب والحصار من غلاء ونقص في الغذاء ومنها المجاعات (الفيروزبادي: 15) (ابن منظور: 431-432)، وهذا راجع لعدم دخول المواد الغذائية من خارج المدينة، سواء كانت تبادلات تجارية داخلياً أو خارجيا عن طريق الموانئ مثل ما حدث في ميناء هنين

(Bouayed,1988:342)، وبسبب هذه الظروف والتحولات الحاصلة في النظام الغذائي لدى الناس، جنح البعض منهم لأعمال متطرفة كالسرقة والتخريب وغيرها من التصرفات السيئة، وهناك من اعتمد على غذاء غير طبيعي ومقزز، وهذا بعد استنفاذ كل السبل المتاحة الأخرى بعد استبداد الجوع بهم (عباس، 2021: 268)، وهذا ما حدث عندا حصرت مدينة بجاية سنة 588هـ/1192م، وكذلك سنة 626هـ/1325م من قبل الميورقيين، وراح ضحيته الكثير من الناس وتسبب في تعطيل البناء والتشييد وهدد نشاطها الاقتصادي والحرفي والزراعي(بوقاعدة، 2017: 457).

إلا أنه على الرغم من توصية أهل العلم بالحذر والحيطة أيام الحرب والحصار، إلا أن هذه الأحداث حدث في عدة مدن من المغرب الإسلامي والمغرب الأوسط بصفة خاصة، وهذا ابن منكلي يوصى بجملة من الوصايا فقال: "...**فالاحتراس من المحاصرة: جمع الطعام والأعـــلاف والمـــتاع والحطب وآلة الحرب، وأداة الصناعة، والحديد والصخور، والخشب، وحفر الآبار للماء – إن خافوا عوز** (ابن منظور: 385) **الماء– أو جمعه أيام الأمطار في الصهاريج**" (الناصري، 2000: 379) (العباسي: 369)، فالحصار هو المنع والضغط والخـــنق، وهنا يمنع على هذه المدينة ممارسة الحياة اليومية والأنشطة الاقتصادية والعمرانية، مما يخلق سوء في تغذية ونقص فيها، وعلى هذا المنوال تضررت كل النشاطات سواء الاجتماعية أو الاقتصادية أو العمرانية (بلعربي، 2018: 115) (ناصري،2000: 123-124).

لا يختلف اثنان بأن الحرب بأشكالها ومشاربها هي السبب الرئيسي في الخراب والدمار المدن عبر مختلف العصور، ولم تسلم المدن الإسلامية في المغرب الإسلامي من هذا الفعل أبداً سواء كانت تلك الحروب مع البربر أو الروم أو حتى مع دويلات الإسلامية فيما بينها، وبمجرد الاطلاع على أوصاف المصادر التاريخية والجغرافية إلا ووجدنا عمران عظيماً خربته تلك الصراعات الدموية والحصار الطويل، ونفي نفس الوقت لا نجد اليوم إلا بعض الآثار المعمارية والعمرانية هنا وهناك، مما صعب علينا دراسة واستنباط تلك القيم الحضارية والخصائص المعمارية لتلك الدول، إذن هذا ما فعلته الحروب بالإنسان والحيوان وجعلت الباحث اليوم يرجع وتنظر في العديد من القضايا العلمية.

2.2.1. الظلم

إن الخراب الذي قد يأتي على العمران جراء ما يفعله الإنسان فهو متعدد ومتشعب بتعدد أدواته، غير أن مبدأه خاصية خلقية سيئة وهي الظلم بتعدد مفاهيمه ومعانيه، لكن نتيجته الخراب والفساد والتهديم وما شابه ذلك، ويورد لنا ابن خلدون عن هذا التأثير قوله: "**أن الظلم مخرب للعمران وأن عائدة الخراب في العمران على الدولة بالفساد والانتفاض**" (ابن خلدون، 2001 : 355)، وعلى هذا الأساس صنف الظلم في درجة الأولى لهلاك الأمم وزوالها وكساد وخراب عمرانها، فالقضية قضية ارتباط اجتماعي كل يؤثر على الآخر خاصة من له مسؤولية على الآخر مثل الحاكم على الرعية، وخير مثال حكام الدولة الرستمية الذين انشغلوا بالسلطة وملذات الدنيا ومنها ظلموا رعيتهم، مما خلق فجوة بينهم خاصة مع أواخر عهدهم (جودت، 1984: 70)، من

المفترض أن هذه الفجوة هي التي جعلت من الرعية تتسبب في الهجرة وتخرب المدينة فيما بعد على أيدي بني عبيد، وهذه طبيعة الإنسان البربري الذي لا يرضى بالظلم.

وإن لنا في القرآن الكريم قصص وعِبَرْ يستلهم الإنسان المسلم منها أسباب فساد وخراب الأمم السابقة، وهذا رغم عمرانهم المتين وبنيانهم في الصخور والجبـــال لكن لم ينفعهم بسبب فســـادهم وظلمهم فقال الله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (سورة الروم الآية 9)، والآية هنا تتحدث عن الذين حرثوا الأرض وزرعوها، وبنَوْا القصور وسكنوها، فلم تنفعهم عِمارتهم ولا طول مدتهم، بعدما ظلموا الرعية وعثوا في الأرض فساداً(الطبري، 1994: 93-94)، وحتى التـــطاول والتعدي على الآخرين ظلم وفساد وخراب لقول الله تعالى: ﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (سورة النحل الآية 26)، وجاء تفسير هذه الآية القرآنية على أن قوم نمرود بنوا بنيان إلى السماء يريدون الاطلاع على الله، فسقط عليهم سقف بنيانهم على رؤوسهم، وقيل عذاب من السماء، لكن رجح تفسيرها أنها سقطت سقوفهم وانهدمت بيوتهم عليهم (الطبري، 1994: 513)، وهنا إشارة لتلك البيوت الضخمة والسقوف الثقيلة التي خرت عليهم.

لا ينفع ولا يبقى مع الظلم شيء فلا قصور ضخمة ولا عروش كثيرة ستبقى مع الظلم لقول الله تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ (سور الحج، الآية 45)، وهنا إشارة لتلك القرية التي أهلكها الله فخرب منازلهم وانهدمت سقوفهم فلم تبقى قصورهم المشيدة من الصخور والجص ولا بئر شرب (الطبري: 327)، إن العذاب إذا حل بقوم أهلك المدينة بأكملها فتصبح تراب كأن لم تكن قصور قد شيدت وزخرفت قبل هذا، فدعوة الله للعباد بعدم الظلم والفساد مع تسخير لهم البنيان في الجبال وتعمير الأرض لقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (سور الأعراف الآية 74)، فقوم صالح الذين كانوا ينحتون أو ينقبون في الصخر مساكن وبيوت، جعلهم آمنين سخاء رخاء وعذبهم بعد ظلمهم وفسادهم فلم تنفعهم القصور ولا المنازل في الجبال (الطبري، 1994: 459-460)، لهذا يوصى بالعدل والمساواة بين الناس حتى تبقى الأمم والمدن في أمن واستقرار.

وإذا كان من المقاصد الشرعية العدل بين العمال، الذين يقومون بخدمة هذه المدينة في مختلف الأعمال من بناء وحرف وصناعات ووظائف مدنية وعسكرية وغيرها، وبمجرد تقليل من شأنهم أو أجورهم يصبحون

عامل سلبي في خراب المدن وعمرانها، وهذا راجع للخدمة التي يقومون بها لهذا يقول الماوردي عن ظلم العمال: "**وإن خانوه في ما اجتنبوه من أمواله، وجاروا في ما تقلدوه من أعماله، نقصت مواده، وخربت بلاده، وتغير عليه – لقلة دخله– أعوانه وأجناده وتولد منه ما يكون محل فساد، ويقول بعض العلماء ظلم العمال ظلمة الأعمال**" (الماوردي، 1981: 206)، ومع العدل الذي يلتزم به الحاكم نحو العمال هو الاعتناء بهم معنويا وماديا، ومن الواجب كذلك مراقبتهم والحرص على تأدية أعمال بطريقة دقيقة ومضبوطة لا مغشوشة ومخدوعة، من خلال تكليف مراقب على هذه الأعمال التي هي أساس المدن وأمنها.

وإذا كان للعمران أسبابه ومقوماته فإن تطوره يحتاج لزمن طويل لكي يؤتي ثماره، غير أن الخراب سببه واحد وإن تشعبت أشكاله، وتعددت أدواته، فالظلم لا يحتاج إلى وقت طويل لكي يؤدي رسالته التي هي الخراب، لأن الخراب يكون بدافع الهدم، والهدم سهل وسريع، وذلك على عكس العمران الذي يأتي نتيجة للبناء، والبناء صعب، ويحتاج إلى وقت كثير وجهد كبير وصبر طويل، إن لفظة الظلم بشعة وحصادها أكثر بشاعة، لأنه الخراب (الشكعة،1992: 205)، فحتى المنافسة في التشييد العمران تعد سبب في خرابه بطريقة غير مباشرة، فقد ذكرت المصادر التاريخية أنه لما عزل عقبة بن نافع وتولية أبو المهاجر الدينار شيد مدينة تايكروان لتنافس مدينة القيروان التي شيدها عقبة، غير أنه خربها ونقل سكانها لمدينته، لكن بعد تولية عقبة مرة ثانية أعاد نفس ما فعله أبو المهاجر سواء الإساءة إليه وتهديم مدينته (النويري، 1990: 13)، وتبقى هذه معطيات مصدرية قابلة للنقاش المفتوح، فمن الممكن أن أبو المهاجر أخلى المدينة ولم يخربها، فهذا الفعل بعيد نوع ما عنه وعن جميع الفاتحين المسلمين، فالوقت والمكان لا يسمح بهذه الأعمال التخريبية لتلك المدن الإسلامية.

واستخلاصا لما سبق حول العلاقة بين الظلم والعمران فهي علاقة سببية وليست بالعلاقة المباشرة، إنما هي متغير مستقل ومتغير تابع، فالظلم لا ينتج خراب العمران مباشرة، بل يؤذن أو يسمح بخراب العمران، بمعنى هناك دوافع أو متغيرات وسيطة يطلقها الظلم أو يسمح بها؛ ومنها يحل الخراب بالعمران، وهي نتيجة لعملية متدرجة ومركبة (صفار:8)، فالظلم وإن كان دافعه نفسي ينتج عن عدة أسباب كسبها الإنسان من واقعه المعيشي، لكن نتاجه ومظهره واقعي ومادي يظهر للعيان من خلال عدة أفعال منها تخريب العمران.

3.2.1. العصبية

وتعد العصبية المذهبية والقبلية إحدى الأسباب المؤدية لخراب المدن، فكثيرا ما سقطت دول وقتلت ملوك وهدمت منازل وقصور بسبب عصبية الملك أو الحاشية أو الرعية فيما بينهم، وهذا ما حدث ببلاد المشرق والمغرب الإسلامي (العباسي، 1989: 322)، لهذا نصح سابقا في شروط بناء وتنظيمها المدينة عدم جمع أضداد الناس في الشارع أو حي واحد، بل من الواجب تفرقتهم وإسكانهم في جهات مختلفة مع مراقبتهم، وهذا الأمر طبقه حماد بن بلكين أيام بنائه للقلعة حين جلب سكان المسيلة وحمزة وأشير وأهل جراوة، وأسكنهم في جهات مختلفة من المدينة، لكن مع ترحيله لتلك الجماعات خرب مدنهم كي لا يعودوا إليها (عويس،

1990: 66-93)، ويعتبر هذا الفعل عصبية لمدينته التي شيدها، فهو لم يرضى بمدن أخرى تكون تنافس القلعة، صراحة لا يمكن أن نصف هذا الفعل إلا بالعصبية، وهو سلوك مبرر مكانياً وزمانياً فكل قائد إذا أراد بناء مدينة لابد له من القضاء على من ينافسه في ذلك، أما نتيجة من ذلك فهو خراب العمارة والعمران.

إن من سياسة الملك في الدولة هو توفير الأمن والأمان للناس واحترام خصوصياتهم، وتطوير العمران وإنعاشه وترقيـــــته وتهذيبه وترصيعه بمفاخر المباني والمنشآت المعمارية (عثمان اسماعيل، 1993: 81-82)، ولا يكون هذا التطور إلا بالأعمال والصنائع والعدل وترك العصبية التي تفرق وتشتت الناس (الجباري، 1994: 148)، فقد يبدو للقارئ للوهلة الأولى أن العصبية المذهبية والقبلية ليس لها دخل في تخريب العمران، لكن التدقيق والقراءة في بعض الأحداث الماضية يجد إشارات غير مباشرة تسببت في ذلك، وإن كان المَلِكُ أو السُلْطَانْ لا يحصل على السلطة إلا بصيغة دينية أو ولاية أو أثر عظيم من الدين، وهنا تظهر قوة الجمع والغِلْظَةَ والولاء لهذا الحاكم (عدة الشيخ، 2012: 41)، ومنها ما يسمى العصبية المذهبية التي عينته وساعدته في الحكم، لكن في نفس الوقت هي التي تقضي وتزيحه من السلطة، ويتبع ذلك التصرف أعمال مفسدة للدولة والعمران، فمعظم الحروب التي قامت إنما هي من دوافع العصبية سواء كانت مذهبية أو قبلية.

4.2.1. تدهور الاقتصاد

يرتبط هذا الجانب بشكل مباشر بالإنسان فهو الذي يسير أموره التجارية والاقتصادية، لكن تأثيره ينجم عن عدة أشكال؛ كالغش، الإسراف، التبذير، البطالة، السرقة، الغلاء، وغيرها من العوامل التي تسبب في خراب العمران بطريقة غير مباشرة من مجال تدهور الاقتصاد، وهذا ابن خلدون يشرح لنا أحد العوامل المتسبب في ذلك وهو الإسراف، فيقول: "**فتعظم نفقات أهـــــل الحِـــضارة وتخرج عن القصد إلى الإسراف... وتذهب مكاسبهم كلها في النفـــقات ويتابـــعون في الإمـــــلاق والخاصة، ويغلب عليهم الفقر ويقل المستامون للبضائع فتكسد الأسواق ويفسد حال المدينة وداعية ذلك كل إفراط الحِضارة والترف، وهذه مفسدات في المدينة على العموم في الأسواق والعمران**" (ابن خلدون، 2001: 466)، إن طلب الكماليات فوق لزومها دون تمام حاجيات المدينة يعد أمرا سلبي وإخلال في نظـــم التســـيير والتخطيط لبناء المدينة، فلا يمكن بناء منتزهات وحدائق دون تحصين المدينة ومنازلها وقصورها فهذا يعد إسراف وتبذير وسوء تخطيط في البناء والتعمير، فقد لا نلقى هذا التأثير واضح في المغرب الإسلامي بصفة خاصة، فمن الممكن أن نجده في الأندلس والمشرق الإسلامي.

ومن الآفات التي قد تسود في المدن هي البطالة، وتحدث بسبب الغلاء وكثرة الضرائب وعن الظواهر الطبيعية وغيرها، فتنجر عنها آفات أخرى مثل السرقة والتعدي على أملاك الآخرين، يصبح هذا الإنسان يخرب البيوت ويسرق من أجل كسب المال ولو على حساب أمالك الناس والدولة، بل من الضروري على كل طائفة أن تنعكف على شغل من الأشغال أو فن من المصالح العائدة نفعها عليهم وعلى المدينة (العباسي، 1989: 322)، فالبطالة تجر الإنسان لفعل كل شيء دون قيد أو ردع من القانون، لهذا يوصي أهل العلم الحاكم في

سياسة ملكه وبناء مدينته بإشغال رعيته في عدة وظائف حتى لا يكونوا عدوا له ويخربون عمرانه، وعليه الاعتناء بهم وعدم فرض ضرائب أو خراج بقيمة كبيرة عليهم، وقد أشار أبو بكر الطركوشي لهذه القضية من خلال قوله: "**ومثل السلطان إذا حمل على أهل الخراج حتى ضعفوا عن عمارة الأرضين مثل من يقطع لحمه ويأكله من الجوع...وإذا ضعف الزَّارِعون عَجَزُوا عن عِمَارَةِ الأَرَضِين، فَيَتْرُكونها فَتَخْرِبُ الأرضُ، ويهرب الزُّراع فَتَضْعُفُ العِمَارةُ**" (الطرطوشي، 1994: 497) (تاجنانت، 2016: 72)، ولنركز على آخر جملة في هذه القول ويهرب الزراع فتضعف العمارة، بمعنى هناك خلل في شروط تنظيم المدينة الإسلامية وهي عدم وجود اليد العاملة ومنها لا وجود للغذاء بمعنى هناك خراب قادم للعمارة والعمران.

إن الهدف من شرط وجود الصناع والحرفيين في المدينة هو استمرار وتطور وحياة للإنسان ومنها العمران، فتخيل لو يغيب هذا الشرط في المدن الإسلامية ماذا سيحدث، صراحة لا أتصور بأن يكون هناك عمارة وعمران إطلاقا، وفي حالة وجودهم قد يتعرضون لمضايقات من خلال فرض ضرائب وغرامات عليهم أو حتى منعهم وغلق حوانيتهم ونقلهم لمناطق جديدة، ومنها يجدون فيها غلاء وكراء فاحش بتلك المدن، وهذا الأمر الذي حدث بالقيروان بعدما نقلوا من صنهاجة إلى المنصورية في سنة 405هـ/1014م، ففرض على التجار والصناع القيروان بإغلاق حوانيتهم وفنادقهم حتى لم يبق بها إلا بعض حوانيت الأحباس، في حين نجد غلاء كبير للحوانيت بالمنصورية، وبسبب هذا الفعل عجل بخراب القيروان (ابن عذاري، 1985: 261) (تاجنانت،2016: 76)، مهما تعدد الأسباب في الجانب الاقتصادي إلا أن خراب العمران هو نتيجة حتمية في الأخير، لهذا فدراسة الأسباب المؤدية إلى هذا توجب علينا سردها بصورة واضحة وفق منهجية علمية.

2. مفاسد العمران

مما لا شك فيه أن المجاعات كانت مقرونة أحيانا بأوبئة وأمراض فتاكة زادت من تفاقم حدة النزيف البشري بحكم عوامل انتقال العدوى (البياض، 2008: 24)، وتنتقل تلك العدوى عبر الهواء للناس فتصيبهم بالأمراض والأسقام، وفي هذا السياق يورد لنا ابن خلدون سبب وقوع الوباء فيقول: "**وقوع الوباء وسببه في الغالب فساد الهواء بكثرة العمران لكثرة ما يخالطه من العفن والرطوبة الفاسدة وإذا فسد الهواء، وهو غذاء الروح الحيواني وملابسه دائما فيسري الفساد...وتمرض الأبـــدان وتهلك وسبب كثرة العـــــفن والرطوبة الفاسدة في هذا كله كثرة العمران...**" (ابن خلدون، 2001: 376)، وعليه يصبح الوباء معطل للحياة البشرية ومهددا لهم، وهذا ما ينقله أحد الباحثين على لسان ابن الخطيب السلماني فيقول: "... **إذا اتصف الهواء بالصفة الوبائية أفسد الحياة بتعفن الروح الذي في القلب لشدة مخالطته ومجاورته له، وكذلك يضر بالنبـــــاتات والحيوانات ويضر من يأكلها من الإنسان بظهور الحميات العفنة والجدري والطواعين**" (حمود، 2018: 171) (بديرة، 2018: 132)، وهنا شرح واضح لخطر الوباء على المجتمع سواء في تهديد حياتهم أو تعطيل حرفهم أو تجارتهم، كما يجعل عمران المدينة راكد بفعل انشغال الناس بذلك الوباء.

لقد ذكرت لنا المصادر التاريخية والرحالة الجغرافيين بعض الحواضر التي أصابها الوباء جراء فساد الهواء، وهذا البكري يورد لنا ما أصاب مدينة تنس من وباء فقال: "...**فلما دخل عليهم الربيع اعتلوا واستوبئوا الموضع**" (البكري، 2003: 242) وهنا يشير لهجرة الأندلسيين من مدينتهم التي شيدوها جراء ذلك الوباء، وهذا ما أكده القزويني من قوله: "... **هواؤها وبي وماؤها ردي، وماؤهم من واد يدور حول المدينة، وإليه مذهب مياه حشوشهم وشربهم، والحمى لا تفارق أهلها في أكثر الأوقات**" (القزويني: 173)، إن الوباء الذي ضرب مدينة تنس في الفصول الموسمية قد يكون هدد الاستقرار البشري وقتل الكثير من البشر، إلا أن العنصر البشري لم يتوقف عن الزيادة والمكوث وتعمير المدينة وممارسة التجارة، لهذا بقيت تحتل تنس مكانة هامة في المغرب الأوسط رغم الوباء والمجاعات (مزدور، 2009: 24)، فلا يعقل أن نعمم هذا الوباء على مدينة تنس لمدة طويلة، فقد يكون أصابها في مدة قصيرة فقط، لكن بعض المصادر من خلال المبالغة في وصفها ممكن أنها عممت هذا الوباء لمدة أطول.

ومما يشير له الطبيب العربي بن سينا لفساد الهواء في الفصول والتي تنجم عن أمراض فيقول: "...**واعلم أن اختلاف الفصول قد يثير في كل إقليم ضربا من الأمراض ويجب على الطبيب أن يتعرف ذلك في كل إقليم حتى يكون الاحتراز والتقدم بالتدبير مبنيا عليه، وقد يشبه اليوم الواحد أيضا بعض الفصول دون بعض فمن الأيام ما هو شتوي ومنها ما هو صيفي ومنها ما هو خريفي يسخن ويبرد في يوم واحد... ويجب أن تكون الفصول ترد على واجباتها فيكون الصيف حارا والشتاء باردا، وكذلك كل فصل، فإن انخرق ذلك فكثيرا ما يكون سببا لأمراض رديئة** ..." (ابن سينا، 1999: 117)، هذه معلومات أوردها الطبيب بدقة حول خطورة فساد الهواء وما ينجم عنه من أمراض وأسقام تهدد حياة البشر واستقراره، وبما أن العمران هو الغاية المُدْرَكَ لهذا الإنسان يسعى دائما للأخذ بنصائح العلماء وخاصة أهل الطب.

خاتمة

ولا يختلف اثنان أن مفاسد العمران كثيرة والتي تؤثر مباشرة على حياة الإنسان، فالحرب بأنواعها والمجاعات وأسبابها والأوبئة وأضرارها، فكل من الحرب والمجاعة والوباء لهم علاقة تأثيرية فيما بينهم، فبسبب الحرب والحصار ينجم عنه القتل وتخريب العمران، كما ينجم عن الحصار نقص في الغذاء مما يؤدي للمجاعة وبعدها تنجم عنها عدة وفيات، كما تسبب في ظهور الأمراض والأوبئة جراء أكل أشياء غريبة وفاسدة ومقززة سواء أكل الحيوانات مثل الحمير والكلاب والقطط وغيرها، وحتى أكل لحم الإنسان ولنا أمثلة كثيرة في هذا، وكل هذه الأسباب السلبية تدخل في شؤون العمران بين التطور والخراب.

لقد لخص أحد الباحثين أسباب فساد العمران وفق نظرية ابن خلدون من خلال نقطتين أساسيتين فتتمثل النقطة الأولى في عدوان الحاكم على أموال الناس يذهب بآمالهم في التحصيل والكسب، ومن ثم تنقبض أيديهم عن السعي والعمل والتعمير، وهنا يصبح الحاكم ظالم وطاغية على رعيته فيلجئ الناس للهجرة وخلق فوضى إلى أن تصبح حروب في بعض الأحيان، كما تنتشر السرقة وتخريب ممتلكات المدينة ويصبح عمران المدينة

في خطر، أما عن النقطة الثانية في أن تطور العمران وازدهاره لا يكون إلا بالعمل والسعي والتنافس بين الحكام والرعية، فإذا قعد الناس عن العمل والسعي حدث الاختلال في المدينة أو الدولة والمجتمع على هذا النحو: انعدام المكاسب، يؤدي لكساد العمران، ينتج عنه انتفاض أحوال الناس وفساد المجتمع، فيحصل تشتت في الأفاق، وقلة عدد السكان، وبها تخلو الديار من أهلها، وعليه اختلال حال الدول فيختل المجتمع تبعا لذلك (الشكعة، 1992: 207–208)، هذا ما لخص عن أسباب فساد العمران والمجتمع فإذا حدث أي اختلال في تلك النقاط فإن زوال المدينة حتمي إلا إذا تداركها الحكام والرعية، من خلال بعض القوانين والأعمال وإعطاء الحرية للرعية فيما يسمح به الشرع الإسلامي، فالعمران حياة المجتمع فإن لم يحافظوا عليه لن يبقى لهم لا مدينة ولا مقر يحميهم.

قائمة المراجع:

- Agha Bouayed Mahmoud, (1988), **Le port de Hunayn, trait d'union entre le Maghreb central et l'Espagne au Moyen Age**, dans: Relaciones de la PeninsulaIberica con El Maghreb siglos XII–XVI ; Aatacdelcoloqui (Madrid ;17-18 décembre 1987), Instituto Hispano- Arabe de cultura, Madrid

– ابن الأثير (ت.630هـ)، (1987م)، **الكامل في التاريخ**، ج.6، مراجعة: محمد يوسف الدقاق، ط.1، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية.

– ابن خلدون يحيى أبي زكرياء، (2001م)، **بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد**، تحقيق: عبد الحميد حاجيات، ج.2، الجزائر، عالم المعرفة.

– ابن سينا، (1999م)، **القانون في الطب**، ج.1، ط.1، بيروت، لبنان، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية.

– ابن منظور، لسان العرب، مج.3، دار صادر.

– أحمد موسى عز الدين، (1983م)، **دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي**، ط.1، بيروت، دار الشروق.

– الإدريسي أبي عبيد الله، (2002م)، **نزهة المشتاق في اختراق الأفاق**، مج.1، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية.

– الباروني سليمان باشا، (2005م)، **الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية**، مراجعة: محمد علي الصليبي، لندن، دار الحكمة.

– البشير بوقاعدة، (2013م)، **خراب المدن بالمغرب الأوسط والأدنى بين 296هـ/909 – 547هـ/1152م**، رسالة ماجستير في تاريخ المشرق والمغرب الإسلامي، المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة، الجزائر.

– البكري أبو عبيد الله، **المسالك والممالك**، تحقيق: جمال طلبة، ج.2، ط.1، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية.

– البياض عبد الهادي، (2008م)، **الكوارث الطبيعية وأثرها في سلوك وذهنيات الإنسان في المغرب والأندلس (ق.6هـ–8هـ/12م–14م)**، ط.1، بيروت، دار الطليعة للنشر والتوزيع.

– التنبكتي أحمد بابا (ت.963هـ/1036م)، (1989م)، **نيل الابتهاج بتطريز الديباج**، تقديم وإشراف: عبد الحميد عبد الله الهرامة، ج.2، ط.1، طرابلس، كلية الدعوة الإسلامية.

– الجوهري أبي نصر إسماعيل بن حماد (ت.398هـ)، (2009م)، **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية مرتب ترتيبا ألفبائيا وفق أوائل الحروف**، القاهرة، دار الحديث.

– الدرجيني أبي العباس أحمد بن سعيد (ت.670هـ)، (د.ت)، **طبقات المشائخ بالمغرب**، ج.1، تحقيق: إبراهيم طلاي، قسنطينة، الجزائر، مطبعة البعث.

– السراج أحمد، (2015م)، **العمارة الإسلامية خصائص وآثار**، تقديم: أحمد عابد، غزة، فلسطين.

– الشكعة مصطفى، (1992م)، **الأسس الإسلامية في فكر ابن خلدون ونظرياته**، ط.3، دار المصرية اللبنانية.

- الشيخ عدة، (2012م)، **العصبية الدينية دورها في قيام وأفول الدول الإسلامية المرابطية نموذجا**، رسالة مقدمة لنيل الماجستير في إطار المدرسة الدكتورالية (الدين والمجتمع)، قسم الفلسفة، جامعة وهران، الجزائر.
- الصلابي محمد علي، (1998م)، **صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي (فقه التمكين عند الدولة المرابطين)**، ج.4، عمان، الاردن، دار البيارق للنشر.
- الطرطوشي أبي بكر محمد بن الوليد الفهري (451هـ-520هـ)، (1994م)، **سراج الملوك**، تحقيق: محمد فتحي أبو بكر، مج.1، ط.1، القاهرة، دار المصرية اللبنانية.
- العباسي الحسين بن عبد الله (ت 710هـ/1310م)، (1989م)، **آثار الأول في ترتيب الدول**، تحقيق: عبد الرحمن عميرة، ط.1، بيروت، دار الجيل.
- العصيمي عبد المحسن، (2013م)، **مختصر مقدمة ابن خلدون**، ط.3، قرطبة للنشر والتوزيع.
- القزويني زكريا بن محمد بن محمود، **أثار البلاد وأخبار العباد**، بيروت، دار صادر.
- الماوردي أبي الحسن علي بن محمد، (1981م)، **تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق المَلك وسياسة المُلك**، تحقيق: محي هلال السرحان وحسن الساعاتي، بيروت، دار النهضة العربية.
- المراكشي ابن عذاري، (1985م)، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب قسم الموحدين**، تحقيق: محمد إبراهيم الكتاني وآخرون، ط.1، بيروت، لبنان، دار الغرب الإسلامي.
- المكناسي أحمد ابن القاضي (960-1025هـ)، (1973م)، **جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس**، الرباط، دار المنصور للطباعة والوراقة.
- الناصري أبو العباس أحمد بن خالد، (1951م)، **الاستقصاء لأخبار المغرب الأقصى**، تحقيق: جعفر الناصري ومحمد الناصري، ج.3، الدار البيضاء، دار الكتاب.
- الناصري محمد ابن منكلي، (2000م)، **الحيل في الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب**، تحقيق: نبيل محمد عبد العزيز أحمد، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية.
- النويري شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت.733هـ)، (د.ت)، **نهاية الإرب في فنون الأدب**، تحقيق: عبد المجيد ترحيني، ج.24، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية.
- الوزان الفاسي حسن بن محمد (ليون الإفريقي)، (1983م)، **وصف إفريقيا**، ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر، ج.2، ط.2، بيروت لبنان، دار الغرب الإسلامي.
- بديرة عادل، (2018م)، **بادية المغرب الأوسط في العصر الوسيط (دراسة للواقع الاقتصادي والاجتماعي وتأثيرها على السلوك والذهنيات من القرن 4 إلى 7هـ/10-13م**، رسالة مكملة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ، قسم التاريخ، جامعة محمد بوضياف، المسيلة، الجزائر.
- بلعربي خالد، (2018م)، **إضاءات حول تاريخ المغرب الأوسط في العصر الوسيط**، تلمسان، دار النشر الجامعي الجديد.
- بن أبي زرع علي الفاسي، (1972م)، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، الرباط، دار المنصور للطباعة والوراقة.
- بن داود نصر الدين، (2010م)، **بيوتات العلماء بتلمسان من القرن 7هـ/13م إلى 10هـ/16م**، أطروحة دكتوراه، جامعة تلمسان، الجزائر.
- بن عميرة محمد وبشاري بن عميرة لطيفة، (2015م)، **تاريخ بجاية في ظل الأنظمة السياسية من عهد القرطاجيين إلى عهد الأتراك العثمانيين**، ط.1، الجزائر، دار الفاروق.
- بن قربة صالح يوسف، (1991م)، **عبد المؤمن بن علي مؤسس الدولة الموحدين**، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.

– بوقاعدة البشير، (2017م)، **خطة الحصار العسكرية في بلاد المغرب الإسلامي بين القرنين الرابع والثامن الهجريين (14-10م)**، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في تاريخ المغرب والمشرق الإسلامي، المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة، الجزائر.

– تجنانت مراد، (2016م)، **الأزمات الاقتصادية في الغرب الإسلامي مظاهرها وآثارها أسبابها وطرق معالجتها في القرنين الخامس والسادس الهجريين(12-11م)**، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في التاريخ الوسيط، قسم التاريخ، جامعة الجزائر2، الجزائر.

– جودت يوسف عبد الكريم، (1984م)، **العلاقات الخارجية للدولة الرستمية**، رغاية، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية.

– حمود علا محمود، (2018م)، **المجاعات والأوبئة في المغرب والأندلس ق 6- 8هـ//12-14م "دراسة في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي"**، حمص، سوريا، جامعة البعث.

– شاكي عبد العزيز، (2016م)، **الحروب والثورات والفتن الداخلية في دولة المرابطين (447 – 541هـ/1056-1146م)**، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في التاريخ الوسيط، قسم التاريخ، جامعة الجزائر2، الجزائر.

– شمبري لور، (2014م)، **المناخ**، ترجمة: زينب منعم، ط.1، الرياض، مكتبة الملك فهد أثناء النشر.

– صديقي عبد الجبار، (2014)، **سقوط الدولة الموحدية دراسة تحليلية في الأسباب والتداعيات**، رسالة مقدمة لنيل شهادة ماجستير في تاريخ وحضارة المغرب الإسلامي، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان.

– صفار محمد، (د.ت)، **في أن الظلم مؤذن بخراب العمران**، أوراق نماء، مركز نماء للبحوث والدراسات.

– عابد الجابري حمد، (1994م)، **فكر ابن خلدون العصبية والدولة معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي**، ط.6، بيروت، لبنان، مركز دراسات الوحدة العربية.

– عباس رشيد، (2021م)، **النظام الغذائي بالمغرب الإسلامي من القرن السادس الهجري إلى القرن التاسع الهجري (12م- 15م)**، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه (ل م د) في التاريخ الإسلامي الوسيط.

– عبد القادر نور الدين، (2006م)، **صفحات في تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد التركي**، بئر توتة الجزائر، دار الحضارة.

– عويس عبد الحليم، (1990م)، **دولة بني حماد صفحة رائعة من التاريخ الجزائري**، ط.2، القاهرة، دار صحوت، دار الوفاء.

– فطيمة مطهري، (2010م)، **مدينة تيهرت الرستمية دراسة تاريخية حضارية (3-2هـ/8-9م)**، رسالة الماجستير في التاريخ المغرب الإسلامي، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، الجزائر.

– قاسم محمد محمود الحاج، (2020م)، **البيئة والأوبئة في التراث الطبي العربي الإسلامي**، ط.1، الموصل، العاق، دار ماشكي للطباعة والنشر والتوزيع.

– كربخال مارمول، (1989م)، **إفريقيا**، ج.2، ترجمة: محمد حجي وآخرون، دار نشر المعرفة.

– محمد اللبان خلف الله حسن، (1999م)، **البيئة في التخطيط العمراني**، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية.

– مزدور سمية، (2008م)، **المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط (927-588هـ/1192-1520م)**، رسالة ماجستير، جامعة منتوري، قسنطينة.

– مؤنس حسين، **تاريخ المغرب وحضارته**، مج.1

– ناصري عبد المالك، **موقف الفقهاء من التخطيط الحضري للمدن، السلطة والفقهاء والمجتمع في تاريخ المغرب، الائتلاف والاختلاف**، سلسلة ندوات في تاريخ المغرب.

ابن الأثير (ت. 630هـ)، (1987م)، **الكامل في التاريخ**، مراجعة: محمد يوسف الدقاق، مج.8، ط.1، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية.

–ابن حزم الأندلسي، (د.ت)، **جمهرة أنساب العرب (384هـ-456هـ)**، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط.5، القاهرة، دار المعارف.

–ابن خلدون، (2001م)، **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، تحقيق: خليل شحاذة، ج.1، بيروت، لبنان، دار الفكر للنشر والتوزيع.

-أبو حمو موسى الثاني الزياني (723هـ-791هـ/1321م-1389م)، (2012م)، **واسطة السلوك في سياسة الملوك**، تحقيق وتعليق: محمود بوترعة، برج الكيفان، الجزائر، دار الشيماء، دار النعمان.

-الطبري، (1994م)، **تفسير الطبري من كتابه جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، تحقيق: بشار عواد معروف وعصام فارس الخرستاني، مج.7، ط.1، بيروت، مؤسسة الرسالة.

-الفيروز أبادي، **القاموس المحيط**، ج.3، بيروت، دار العلم للملايين.

-المعجم الوسيط، (2004م)، ط.4، **مجمع اللغة العربية، الإدارة العامة للمعجمات وإحياء التراث**، جمهورية مصر العربية، مكتبة الشروق الدولية.

-النميري الحاج، (1990م)، **فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب**، دراسة وإعداد: محمد ابن شقرون، ط.1، بيروت، لبنان، دار الغرب الإسلامي.

-عثمان اسماعيل عثمان، (1993م)، **العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية بالمغرب الأقصى، دولة المرابطين والطراز المغربي الأندلسي**، ج.3، ط.1، الرباط، مطبعة المعارف الجديدة.

-ناصري محمد، (2020م)، **الحرب والمجتمع بالمغرب الأوسط خلال العهد الزياني دراسة في انعكاسات الحرب على البنى الاقتصادية والاجتماعية والذهنية (962-633هـ/1235-1554م)**، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه (ل.م.د) في التاريخ الإسلامي الوسيط، قسم التاريخ، جامعة جيلالي اليابس سيدي بلعباس، الجزائر.